سؤال التصوف في فكر الإمام الشاطبي
-قضايا وإشكالات-

عبد القادر طاهري
جامعة مولاي سليمان (المغرب)

ملخص :

يدور مقال "سؤال التصوف في فكر الإمام الشاطبي-قضايا وإشكالات-" على رصد أطروحة الشاطبي الخاصة بنقد الخطاب الصوفي، من خلال التطرق لأهم المواقف من التصوف، وموقع الشاطبي في تلك الاتجاهات، وكيف ينبغي أن يمارس تقويم التجربة الصوفية. ولهذا أبرزنا منهج الشاطبي في نخل أسس التصوف، ومستنداته، ومدارسه، ضمن أطروحة التصوف السني، والرد على الشبه المفتعلة التي أودت بالتصوف أن يظل مرفوضا رغم حاضنته الاجتماعية. كما تعرض المقال لأبعاد نقد الشاطبي الخطاب الصوفي، والحاجة الحضارية الآنية إلى أطروحته التصوفية سدا للفراغ الروحي الذي يرزح تحته جمهور عريض من المجتمع الإنساني خصوصا والعالمي عموما. فالمقال عمل على ملامسة أهم الإشكالات التي رافقت نقد الشاطبي للخطاب الصوفي حيث اشتملت على ثلاثة محاور أساسية: المحور الأول: الشاطبي والخطاب الصوفي، المحور الثاني: في نقد وتقويم أطروحة متقدمي الصوفية

والمترسمين أدعياء التصوف، والمحور الثالث: دواعي الحاجة إلى أطروحة الشاطبي الصوفية.

الكلمات المفتاحية: التصوف- فكر- الشاطبي- التجربة الصوفية- أدعياء التصوف- متقدمي الصوفية-

The Question of Sufism in Imam Shatibi's Conceptual Framework

Abstract:

focuses to investigate Shatibi's thesis and his critical view towards Sufism . That can be done through the study of the main attitudes about Sufism and the position of Shatibi in these intellectual trends . Special attention is also given to the way the Sufis experience should be addressed. That's why we have highlighted the Shatib's approach which analyses Sufism, its scaffoldings and its different trends within the Sunni Sufism. Besides, we have exposed the critical reaction to the fake Sufi stands that have led to the rejection of Sufism despite the social adoption for it . This paper also handles the projections of Shatibi's critical analysis about Sufi discourse. In addition, it calls for the immediate need of modern civilization to embrace Sufism as a tool to fill the spiritual crisis from which humanity suffers.

Key words: Sufism – Thinking – Shatibi – Sufis experience – Advocators of Sufism – pioneers of Sufism

معلوم أن الصوفية هم من احتضن الخطاب الأخلاقي والسلوكي في العالم الإسلامي، وهم من قدم نماذج أخلاقية تعبر عن أهم خصائص التصور الأخلاقي الإسلامي. ومن استفسر عن الأخلاق الإسلامية العملية فمظنة الأجوبة النظرية في التجربة الصوفية. وقد ظل التصوف حاضنة الأخلاق الإسلامية والممهد لها والمنظر لأهم كلياتها ومرتكزاتها، ومن ثم ظل المتن الصوفي بؤرة المراجعة والنقد والتمحيص من جهة، وبؤرة الاستمداد واكتشاف المنهج الأخلاقي الإسلامي من جهة أخرى. لهذا فمن رام تكوين تصور وموقف من السلوك الإسلامي، فالمدخل الذي لا بد من المرور منه هو المتن

الصوفي. لهذا انطلق الإمام الشاطبي وغيره من المتن الصوفي في بلورة تصوره نحو سلامة السلوك وانحرافه.

فلا أحد يجادل بأن الإمام المقاصدي أبا إسحاق الشاطبي المالكي الأندلسي- الغرناطي(ت790هـ)، قد تميزت رؤيته للخطاب الصوفي بالشمول وتعدد الأبعاد، ووضوح المقصد. حيث يحسب له أنه أقام تلك الرؤية على أصول ثابتة كعادته، وفرت له الزاد المعرفي والاعتقادي الكافي في تحليل الخطاب الصوفي وتفكيك بنيته، ونخل عناصره، وتحرير قواعده. ولقد خبر هذا الخطاب إن على مستوى أصول استمداده ومنهجه، أو على مستوى ممارسته وتجربته وتنزيلاته، أو على مستوى مآل تلك التجربة وما أفضت إليه من الآثار المعرفية أو من المواقف حول التصوف. فماذا تبقى من رؤية أبي إسحاق؟ وكيف نستثمرها في تشكيل وعي في الحاضر يسهم في إعادة صياغة الأخلاق الإسلامية، ويغني التجربة الدينية بطريق تديني يحتاج فقط أن تعاد صياغته، على أن يراعى في تلك الصياغة الحاجة التدينية الحقيقية في ظل هيمنة الأشكال المادية التي كانت سببا في انخفاض منسوب الالتزام الديني، وانخفاض منسوب الأخلاق الإسلامية؟ وما أهم المرتكزات التي قامت عليها أطروحته في نخل الخطاب الصوفي ونقد أصوله النظرية وتنزيلاته العملية؟

هي أسئلة عديدة يسعى المقال أن يقاربها في ظل راهنية الحاجة إلى امتلاك رؤية شرعية واضحة تزيل كثيرا من الغموض في خصوص الخطاب الصوفي الذي كثر الطلب عليه. وهو ما يرد في المحاور الآتية:

المحور الأول: الشاطبي والخطاب الصوفي

المحور الثاني: في نقد وتقويم أطرحتي متقدمي الصوفية والمترسمين أدعياء التصوف

المحور الثالث: دواعي الحاجة إلى أطروحة الشاطبي الصوفية

هي محاور بالمناسبة لا تفي بكل ما ينبغي تبسيط القول فيه، لكنها على الأقل تفتح نقاشا حول المنهج والمعرفة في تصور الشاطبي لعلم السلوك ومقاصده من التزكية والتربية والتهذيب.

المحور الأول: الشاطبي والخطاب الصوفي

التصوف من القضايا التي أدرجت ضمن مشاغل الشاطبي الفكرية، وهذا إنما يتضح في متنه أكثر، لأنه خصص له مساحة لا يستهان بها وإن تناثر في مباحثه، وترامى في مختلف مسائله. ويعود سبب اهتمام الشاطبي بالتصوف إلى أمور، منها:

-تشبع الشاطبي بالفكر الصوفي، وتأثره بالمقري الجد المعروف بالمقري الكبير، " فهو الذي علم الشاطبي مبادئ التصوف، وذلك من خلال سلسلة الشاذلية، وعنه تلقى أبو إسحاق كتاب "الحقائق والرقائق في التصوف"، وهو من تأليف المقري"(1) . فهذا التشبع كان له الأثر على موقف الشاطبي من التجربة الصوفية، حيث خصص جزءا من كتابيه "الموافقات" و"الاعتصام" للدفاع عن أقطاب الصوفية المتحققين والمنافحة عن أطروحتهم السلوكية والتربيوية والتهذيبية، بكل ما أوتي من جهد فكري وتنظيري، ورد الاعتبار للتصوف السني بإخراج الصوفية من الباطنية، وكذا بتصحيح أصول التصوف ومنهجه، وتقويم الاعوجاج القائم في الممارسة والتنظير بسبب البدع والشبهات، وتبرئة المتصوفة مما ألحق بالتصوف اعتقادا وسلوكا(2) .

2-الخطاب الصوفي كالخطاب الفقهي يؤول إلى ممارسات، قد توصف بالسداد أحيانا، وقد يخطئ أهلها عند إجرائها كما يخطئ غيرهم . ومن ثم، يجري عليه ما يجري على عامة التصرف الصادر من المكلف، لأن الفقه يسعى لضبط عمل الظاهر، والتصوف يروم ضبط عمل الباطن، وهما في النهاية فقه(3) .

3-لما كان هاجس الشاطبي الاشتغال على التنظير لتنزيل الخطاب الشرعي، وتقييم أنظار المنزلين، له، فإن تنزيلات الصوفية مثل تنزيلات الفقهاء، لها أسسها وخصائصها ومدارسها، كما لها منظروها، ولهذا فهي ليست تنزيلات منعزلة أو شاذة بل وجودها قوي، وأثرها على توجيه السلوك وضبط التدين لا يقل عن أثر الفقهاء في ضبط تدين المكلفين. فقد انتشرت الطرق الصوفية، وبسطت

---

(1) محمد بن الطيب :-فقه التصوف- بحث في المقاربة الأصولية الفقهية عند أبي إسحاق الشاطبي-: 29-30.

(2) يقول أبو إسحاق:" وحاشا لله أن يكون أولياء الله من هذه الطوارق المنخرقة ...فقد علم منهم المحافظة على حدود الشريعة ظاهرا وباطنا، وهم القائمون بأحكام السنة كما ينبغي، المحافظون على اتباعها، لكن انحرف الفهم عنهم في هذه الأزمنة، وفيما قبلها طرق في أحوالهم ما طرق، ولأجله وقع البحث في هذه المسائل حتى يتقرر بحول الله ما تفهم به عنهم مقاصدهم، وما توزن به أحوالهم حسبما تعطيه حقيقة طريقتهم المثلى" الموافقات: 2/ 224-225.

(3) الفقه في سياق الحديث، إنما يراد منه معناه اللغوي لا المعنى الاصطلاحي-كما تواضع عليه أهل الشأن من الفقهاء والأصوليين.

سلطانها على أعمال القلوب، ولو بانحرافاتها في أقاليم الغرب الإسلامي عامة. فهي بهذا أهلا أن تظل من مشاغل الشاطبي، وتنضم إلى المشاغل الفكرية الأخرى.

4-سعي الشاطبي نحو تصحيح السلوك، وتحقيق مستوى من الممارسة الأخلاقية في التصرفات الخاصة والعامة، لتتحقق في السالك مقاصد التزكية والتهذيب والتربية. فما موقف الشاطبي من التصوف؟ ولم حكم موقفه البعد المقاصدي؟

الخطاب الصوفي مثل الخطاب الفقهي، تشكلت معالمه الأولى بتشكل العلوم في المجتمع الإسلامي، إذ يعد أحد أعمدة تنزيل الخطاب الشرعي، من حيث أثره على تدين المسلمين قديما وحديثا. فمن ينكر أثره على اعتقاد وسلوك وعمل جمهور عريض من المسلمين، كمن ينكر ضوء الشمس في واضحة النهار، أو كمن ينكر معلوما بين الناس ضرورة، "إذ ما زال يمثل مصدرا مهما من مصادر التدين الجماهيري في بعض مناطق العالم الإسلامي"[4] .

ومع أن هذا الخطاب، له جذوره الممتدة في مختلف بقاع العالم الإسلامي، وله تصوره، وقاموسه، ومقدموه؛ فإنه لم يخلو من النقد، ولم تخلو أدبياته وتنزيلاته من الانحراف والانزلاق في متاهات الإعمال الخاطئ لمقتضى أصوله التي قام عليها بنيانه. والناس في موقفهم من التصوف طوائف[5] ثلاثة:

(4) فريد الأنصاري: التوحيد والوساطة في التربية الدعوية: 175.

(5) حول التصوف بين المدح والذم، يراجع:

-اللمع لابن نصر السراج الطوسي.

-كشف المحجوب للهجوري.

- التعرف لمذهب أهل التصوف، لأبي بكر محمد الكلاباذي.

- وطبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي.

- الرسالة القشيرية في علم التصوف لأبي القاسم القشيري

- الاستقامة لابن تيمية.

- شفاء السائل لابن خلدون.

- الصوفية معتقدا وسلوكا لصابر طعيمة.

- التصوف بين الإفراط والتفريط لعمر عبد الله كامل.

- الناصر معروف في الذب عن التصوف لأحمد بن مصطفى العلوي، تحقيق عبد الله محمد عقور.

- التصوف كوعي وممارسة لعبد المجيد الصغير

- هذه هي الصوفية لعبد الرحمان الوكيل

- فقه التصوف لمحمد بن الطيب

-الطائفة الأولى: المغالون في التصوف، والمدعون بأنه أهدى سبيلا، وأن أهله، خاصة العباد في هذه الأمة، بل من المغالين من ادعى في أربابه بأنهم اختصوا بشريعة خاصة، هي أعلى مما بث في الجمهور(6) .

-الطائفة الثانية: الذين رموا التصوف والمتصوفة بالبدعة، واعتبروه من أعظم البدع التي لا بد من محاربتها بلا هوادة؛ لأن التصوف طريق زائد على منهاج الشرع الذي رسمه قصد اتباعه(7) ، إذ منهم من كذب عليهم، ونسبهم إلى الخروج عن الطريقة المثلى والمخالفة للسنة(8) .

"وكلا الفريقين في طرف، - يقول الشاطبي.. ولكن روح المسألة الفقه"(9) الذي هو فقه التصوف ومقتضياته ومدارسه، ومقاصده، لا الحكم عليه تعميما بالرفض المطلق أو القبول المطلق. وهذا النظر هو الذي سيحكم موقف الشاطبي عموما منه.

-الطائفة الثالثة: أخذت على عاتقها، وضع الخطاب الصوفي في محك النظر الشرعي(10)، "لأن أحوال الصوفية توزن بميزان الشرع"(11) . أي: ليس من الحكمة، والمنطق رفضه جملة، أو قبوله جملة، وإنما يستوجب واقع الحال، أن لا نقع في منطق الأحكام المسبقة، لأن هذا المنهج مفسدته أعظم من مصلحته. فمن خبر التصوف، وأدرك مضمون خطاب الشاطبي الخاص به، اعتبره أحد مقدمي هذه الطائفة. فقد انطلق في نقده لبنية الخطاب الصوفي، وأسسه ومقاصده، ومدارسه، ومفاهيمه، ومقدميه،

- منهج الإمام الجنيد في السلوك وخصائص الممارسة الصوفية بالمغرب للدكتورة ربيعة سحنون، والأستاذ طارق العلمي
-حقائق عن التصوف: عبد القادر عيسى
-العرف الناشر في شرح وأدلة فقه متن ابن عاشر للمختار بن العربي مومن

(6) الموافقات: 2/ 189، انظر كتاب عبد الوهاب الشعراني(ت 973): الأنوار القدسية في بيان قواعد الصوفية،

(7) الاعتصام: 1/ 149

(8) الموافقات: 2/ 189، وانظر، عبد الرحمن الوكيل: هذه هي الصوفية. وابن الجوزي: تلبيس إبليس

(9) الموافقات: 2/ 189

(10) ومنهم أحمد بن حنبل، الذي نقل عنه أن قال لولده عبد الله:" عليك بمجالسة هولاء، القوم-الصوفية-، فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة، والخشية والزهد وعلو الهمة" الكردي، تنوير القلوب، 405 نقل النص في منهج الإمام الجنيد، 21، وشيخ الإسلام ابن تيمية يقول في شهادته، إن أوائل المتصوفة لن يسوغوا للسالك بالخروج عن الأمر والنهي الشرعيين، بل على السالك أن يفعل المأمور ويدع المحظور، إلى أن يموت، وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة. انظر الفتاوى : 10/ 500 ، وانظر، زروق الفاسي: عدة المريد الصادق،

(11) الاعتصام: 2/ 138

من أنه خطاب ليس منبوذا ابتداء، ولكنه في حاجة إلى تفكيك بنيته، وإعادة رسم منهجه، ونخل مضامينه، وتمييز صحيحه من سقيمه. وقد ارتكز في هذا التصنيف على ثابتين أساسين:

**- أحكام الشريعة الإسلامية الكلية والجزئية، حيث امتلأ المتن بالتذكير بأن حكمه على التصوف إنما يتقيد بمقتضيات الشريعة الإسلامية، وأنه لن يخرج عن هذا الميزان مهما علا شأن الصوفي أو غيره، لأن الشريعة حاكمة على كل التصرفات، وعلى كل العلوم قلها وجلها، وأنها المرجع في تمييز الحق من الباطل في العلوم، وفي الطرق، وفي التنزيلات وفي ما سوى ذلك.

**-المقاصد الشرعية التي تعد سقفا لكل حكم شرعي. فالحكم على كل ضرب بالجواز أو عدمه، إنما يتم بناء على مقصده الذي سوف يؤول إليه. فما كان مندرجا تحت المقاصد الشرعية، صح وقبل، وما أشاح عنها وخالف مقصودها رد وبطل.

إذن، شكل الخطاب الصوفي أحد عناصر البحث التي اشتغل عليها أبو إسحاق[12] ، لأن الصوفية من الأصناف الذين أنيط بهم تنزيل الخطاب الشرعي، ولأن التجربة الصوفية نمط تديني، كباقي طرق التدين، يجري عليه ما يجري عليها من السداد أو الانحراف الجزئي أو الكلي، حيث تقترب من الحقيقة الشرعية أو تنآى عنها.

وحين كان التصوف طريقا من طرق تنزيل الخطاب الشرعي، فإنه حينئذ شكل عنصرا أساسا في مشروع الشاطبي التنظيري، لأنه كان يحوم حول تلمس الطريق الأسلم في رد الاعتبار له[13] بالتأصيل

(12) ذكر الشاطبي في مقدمة الموافقات، أن ما جمعه فيها "يوفي حق المجتهد والمقلد والسالك والمربي، والتلميذ والأستاذ"1/ 16، وهو استهلال يدل على حضور الفكر الصوفي في متن الشاطبي عموما.

(13) ذكر الشاطبي في الاعتصام، أنه سوف يفرد للتصوف مصنفا يلخص في طريقة القوم أنموذجا يستدل به على صحة التصوف، وجريانه على الطريقة المثلى، وأنه إنما داخلتها المفاسد وتطرقت إليها البدع من جهة قوم تأخرت أزمانهم، عن عهد ذلك السلف الصالح، وادعوا الدخول فيها من غير سلوك شرعي، ولا فهم لمقاصد أهلها، وتقولوا عليهم ما لم يقولوا به، حتى صارت في هذا الزمان الأخير كأنها شريعة أخرى غير ما أتى به محمد صلى الله عليه وسلم "الاعتصام: 1/ 151 .ويقول في موضع آخر من نفس الكتاب: " وإن فسح الله في المدة، وأعان بفضله، بسطنا الكلام في هذا الباب في كتاب لشرح مذهب أهل التصوف، وبيان ما أدخل فيه مما ليس بطريق لهم. "الاعتصام:1/ 369. ورغم ذلك، قد نستطيع أن نكون فكرة متكاملة عن رأي الشاطبي في التصوف، خصوصا، وقد نقل في المعيار 8/ 588 أن الشاطبي سأل القباب أبا العباس وابن عباد الرندي حول مسألة في التصوف، مما يدل على أن ما قدمه في الاعتصام والموافقات والإفادات، كفيل بأن نبني به تصورا متكاملا مركبا يبرز آراء الشاطبي حول التصوف عموما.

لمشروعيته، ونفي الشبهات عنه، والذي لن يتحقق إلا بعد لململة خطابه، والتنبيه على بداية انزلاقه، من طريق مقبول، إلى طرق امتدت له البدع واخترقت حماه، وأوقعت أهله في مستنقع الاختلاف والزيغ، والغلو رفضا أو قبولا. فما هي المرتكزات التي قامت عليها أطروحة الشاطبي لتفعيل التجربة الصوفية؟

المحور الثاني: أطروحة الشاطبي لتفعيل التجربة الصوفية السليمة

لا ندعي أن أبا إسحاق كان يروم ابتداع مذهب تصوفي، كما فعل البسطامي أو ابن عربي أو الحلاج، أو كان يسعى لهدم التجربة الصوفية ونسف بنيانها بالمرة، وإنما عمل على نفض الغبار على التجربة الأولى نظرا لسلفيته المتحكمة في تصوراته، حيث إن أبا إسحاق أعاد في أطروحته رسم معالم التصوف الإسلامي السني الأصيل، والدعوة إلى تجديد بنياته الفكرية والتنزيلية، حتى يحصل وعي تصوفي سليم من الابتداع في الكيفيات، أو الإحداث والزيادات. لهذا قامت أطروحته على المرتكزات الأساسية التي قام عليها التصوف في بدايته الأولى ومنها:

المرتكز الأول مرتكز تأصيلي: ذلك، أن التصوف امتح مشروعيته وأهم أسسه من الوحي قرآنا وسنة، ومن تجربة الصحابة الكرام، ومن تنظيرات متقدمي الصوفية، ولا سيما تنظيرات تاج العارفين وسيد الطائفتين الإمام الجنيد حيث تميز:

– بالدعوة إلى التوكل والعمل، فالتصوف الذي دافع عنه الشاطبي تصوف عملي أخلاقي تربوي لا ارتزاقي، وهو تصوف الرقائق القلبي الذي يقوم على الذكر، والمجاهدة، والاستقامة والتوكل، وينآى عن النظريات الفلسفية المعرفية الفضفاضة المغرقة في التجريد.

–حمل النفس على التوسط والاعتدال، وعدم الوقوع في الغلو والإفرط في العبادة، المفضي إلى الوقوع في الرهبانية، أو الوقوع في إسقاط التكاليف بالمرة.

– الحرص على استمداد الأحكام من القرآن والسنة، فلا اعتبار للمكاشفات والكرامات في استمداد الأحكام تحليلا وتحريما، لا في العبادات ولا في المعاملات ولا في القضاء ولا في السياسة الشرعية ولا فيما سواها، لأن تلك المكاشفات تفضي إلى إثبات المشروعية للوساطات التي اجتهد الشاطبي وغيره في اقتلاعها من الاعتقاد بتقديسها وإصباغ رداء العصمة عليها ، وكذا من الممارسة بتنقيتها من البدع القولية والفعلية الزائدة على المقررات الشرعية في العبادات ابتداء. وفي هذا الشأن يكثر الشاطبي من النقول عن أرباب السلوك من الصوفية الذين التزموا الكتاب والسنة في الاستمداد؛ حيث نقل في الاعتصام ما يزيد عن نيف وأربعين نصا عن أقطاب الصوفية منها:

قول الإمام الجنيد[14] :" من لم يحفظ القرآن، ويكتب الحديث، لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة "[15] . وقول إبراهيم بن أدهم[16] لما كان يذكر الناس بأسباب عدم استجابة الدعوة، وذلك ، أن عدم استجابة الدعوة، إنما هي بسبب الإعراض عن القرآن، وعدم اتباع السنة [17] . أما ذو النون المصري[18] فقد قال: "إنما دخل الفساد على الخلق من ستة أشياء"؛ وذكر منها، "أنهم نبذوا سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم"[19] . وأبو علي الجوزجاني[20] يقول: "من علامات السعادة على العبد تيسير الطاعة عليه، وموافقة السنة في أفعاله، وصحبته لأهل الصلاح، وحسن أخلاقه مع الإخوان، وبذل معروفه للخلق، واهتمامه بالمسلمين، ومراعاته لأوقاته"[21] . وقال أبو الحسين الوراق[22] : "لا يصل العبد إلى الله إلا بالله، وبموافقة حبيب الله في شرائعه". وقال أبو عمر الزجاجي[23] : "العقل الصحيح الذي يستحسن ما يستحسنه الشرع، ويستقبح ما يستقبحه:"[24] .

---

(14) هو أبو القاسم الجنيد، ولد ونشأ بالعراق، شيخ الصوفية، ولد سنة نيف وعشرين ومائتين، تفقه على أبي ثور، وسمع من السري السقطي، وصحبه، وصحب أيضا الحارث المحاسبي، وأتقن العلم، ثم أقبل على شأنه وتأله وتعبد ونطق بالحكمة، توفي سنة 297هـ . انظر: الرسالة القشيرية: 81، طبقات الصوفية: 155، صفة الصفوة: 2/ 416

(15) الاعتصام: 1/ 164

(16) إبراهيم بن أدهم، إمام زاهد قدوة، نزل الشام، وحدث عن محمد بن زياد الجحمي صاحب أبي هريرة، كان من أبناء الملوك والمياسير، فآثر الآخرة، وأقبل على الزهد والورع. توفي سنة 162 ه. انظر: الرسالة للقشيري: 37، وسير أعلام النبلاء: 7/ 367

(17) الاعتصام: 1/ 151

(18) هو ذو النون بن إبراهيم المصري، وذو النون لقب. كان واعظا زاهدا، روى عن مالك والليث وطائفة، ولد سنة 180 هـ، توفي سنة 245 ه. انظر ترجمته في الرسالة القشيرية، 40. ولمعرفة مصادر ترجمته، راجع فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي المجلد الأول، الجزء الرابع، ص 120

(19) الاعتصام: 1/ 152

(20) من كبار مشايخ خرسان، له التصانيف المشهورة، تكلم في علوم الآفاق والرياضات والمجاهدات، صحب محمد بن علي الترمذي ، انظر، طبقات الصوفية للسلمي، 247

(21) الاعتصام: 1/ 154

(22) أبو الحسن الوراق النيسابوري ، من كبار مشايخ نيسابور، ومن قدماء أصحاب أبي عثمان، وكان عالما بعلوم الظاهر، تكلم في دقائق علوم المعاملات، وعيوب الأفعال. توفي قبل العشرين وثلاثمائة. انظر ترجمته في: طبقات الصوفية للسلمي: 299 وطبقات الشعراني: 1/ 87

(23) هو أبو عمرو الزجاجي، نيسابوري الأصل، صحب أبا عثمان والجنيد والنوري، دخل مكة وأقام بها وصار شيخها، حج قريبا من ستين حجة، توفي بمكة سنة 148 هـ. انظر ترجمته في : الرسالة القشيرية:133 وطبقات السلمي: 431

(24) الاعتصام: 1/ 158

وقال سهل التستري[25] : " أصولنا سبعة أشياء: التمسك بكتاب الله، والاقتداء بسنة رسول الله، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق"[26] . وقال أبو الحسين النوري[27] : " من رأيته يدعي مع الله حالة تخرجه عن حد العلم الشرعي فلا تقربن منه"[28] . وقال أبو بكر الطمستاني[29]: " الطريق واضح، والكتاب والسنة قائم بين أظهرنا، وفضل الصحابة معلوم لسبقهم إلى الهجرة ولصحبتهم "[30]. وقال أبو القاسم النصرباذي[31] : "أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع"[32] . وغيرها من النصوص التي تؤكد على أن مآخذ الأحكام التي يزن بها الصوفية أعمالهم، إنما كان أصلها الكتاب والسنة.

فالشاطبي يعتبر نفسه دون أن يصرح بذلك من طائفة العلماء الذين عملوا على إحياء القيم الإسلامية التي وقع الانحراف عنها، حيث يقول:" وكذلك جعل الله العظيم لبيان السنة من البدعة ناسا من عبيده بحثوا عن أغراض الشريعة كتابا وسنة، وعما كان عليه السلف الصالحون، وداوم عليه الصحابة والتابعون، وردوا على أهل البدع والأهواء حتى تميز أتباع الحق عن أتباع الهوى"[33] .

---

(25) سهل بن عبد الله التستري، شيخ العارفين، الصوفي الزاهد، لقي ذا النون المصري وصحبه، وله كلمات نافعة، ومواعظ حسنة، ولد سنة 203ه، وتوفي سنة 283 ه. انظر ترجمته في: الرسالة القشيرية: 62، وطبقات الصوفية للسلمي: 206. وحول مصادر ترجمته، راجع فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي المجلد الأول، الجزء الرابع ، ص: 129

(26) الاعتصام: 1/ 161

(27) أحمد النوري، يعرف بابن البغوي، بغدادي الأصل والمنشأ، كان شيخ الطائفة بالعراق، وأحذقهم بلطائف الحقائق، صحب السر السقطي، وابن أبي الحواري، من أقران الجنيد. له عبارات دقيقة يتعلق بها من انحرف من الصوفية، توفي سنة 295 ه. انظر الرسالة القشيرية: 82، صفة الصفوة: 2/ 439 ، طبقات الصوفية: 164

(28) الاعتصام: 1/ 165

(29) الطمستاني الفارسي، من أجل المشايخ، صحب إبراهيم الدباغ، وكان أبو بكر الشبلي يبجله، ويعرف له محله، وكان أوحد وقته علما وحالا، ورد نيسابور، وبها توفي بعد الأربعين وثلاثمائة، انظر الرسالة القشيرية: 142، طبقات الصوفية للسلمي: 471

(30) الاعتصام: 1/ 170

(31) النصربادي، شيخ الصوفية بخرسان في وقته، صحب الشبلي وأبا علي الرزباري، كان عالما بالحديث، سمع ابن خزيمة، وأبا العباس السراج، حدث عنه الحاكم، والسلمي وجماعة، توفي في مكة مجاورا سنة، 369ه، انظر الرسالة القشيرية: 145، طبقات الصوفية: 484، وعن مصادر ترجمته، راجع فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي المجلد الأول، الجزء الرابع، ص 160

(32) الاعتصام: 1/ 171

(33) الاعتصام: 2/ 60

المرتكز الثاني مرتكز تربوي تهذيبي : فالقصد من سلوك طريق الصوفية تحقيق التربية والتزكية والتهذيب ، ومنع النفس من حمل صاحبها على المبالغة في الحظوظ الدنيوية، وتصفية القلب، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، "ومجانبة الدواعي النفسانية ومنازلة الصفات الروحانية ...، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة، واتباع الرسول في الشريعة"[34] .

فالصوفية في الأصل هم من ألزموا أنفسهم طواعية واختيارا على خدمة المولى عز وجل أولا، وخدمة الأخلاق الإسلامية ثانيا، وعملوا على ترك حظوظهم الدنيوية فيما يخص المباحات التي تقوم على طلب الاختيار لا على الحتم والإلزام. فهم قد آثروا العمل للآخرة بالإكثار من أعمال القرب استغفارا وذكرا ودعاء وصلاة وصوما.. وكانوا قامات في أخلاق الصبر والاستقامة والرجاء والزهد والتوبة والمحاسبة، والإنابة والإيثار، والعفو، كما منحوا عامة الناس تجربة في تطهير النفس من آفاتها عن طريق التجرد لسلوك المقامات والسمو إلى أعلى الدرجات، "بالإعراض عن زخرفة الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق، والخلو للعبادة"[35] .

لقد استحكم البعد التربوي والتزكوي والتهذيبي أطروحة الشاطبي الأخلاقية، لأنه أدرك الحاجة اللازمة إلى أخلاق متقدمي الصوفية في تصحيح السلوك، بعد أن اختلط بأنظار أبعدته عن مقصده الأول ، من حيث إن أخلاق الصوفية المتقدمين انعكست على السلوك العام، وشكلت أخلاق العامة، وبلورت تنزيلات جسدتها العامة في تصرفاتها، وظلت مرجعا أخلاقيا بامتياز.

المرتكز الثالث مرتكز تقويمي: فالتجربة الصوفية نموذج تنزيلي للخطاب الشرعي، قد يصيب فيه أصحابه وقد يخطئون، كما هو الحال في تنزيلات الفقهاء وتنزيلات المحدثين؛ فكما أن التنزيلات الفقهية أصيبت بآفات التعصب والجمود والابتداع، عبر تاريخها الممتد إلى الآن، فقد أصيبت التجربة الصوفية هي الأخرى بنفس الآفات وأكثر، فاقتضى الأمر أن تنخل التجارب التدينية متى ظهر انحرافها عن مقصد التهذيب والتأديب والتزكية والتربية والتعبد.

نخل التجربة الصوفية، ضرب من النقد، يقوم على تفكيكها، ثم إعادة بنائها وصياغتها بعد تجريدها من العناصر الدخيلة التي حرفتها عن وظيفتها. وهذا المرتكز ظهر جليا في تعامل الشاطبي مع تجربة المتقدمين من المتصوفة والمتأخرين من أدعياء التصوف على السواء. وفي هذا الشأن يقول الشاطبي:" إن الصوفية هم المشهورون باتباع السنة، المقتدون بأفعال السلف الصالح، المثابرون في

(34) الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف: 25

(35) ابن خلدون : المقدمة: علم التصوف

أقوالهم وأفعالهم على الاقتداء التام...ولكنهم في كثير من الأمور يستحسنون أشياء لم تأت في كتاب ولا سنة"[36] . لقد اكتشف الشاطبي في تقويم السلوك الصوفي ضربين اثنين من المتصوفة داخل الحقل السني العملي:

الضرب الأول: وهم متقدموا الصوفية ، حيث رصد الشاطبي نقلا عن القشيري في"رسالته"[37] كيف ظهر التصوف؟ ومن هم المتصوفة الأوائل؟ وذكر أنه كان وصفا "لخواص الناس ممن له شدة عناية بأمر الدين:الزهاد والعباد"[38] ، وهولاء، إنما سموا في البدء ولقبوا به، انفرادا به عن أهل البدع[39].

فظهورهم-كما أرخ القشيري في الرسالة[40] -يلي عصر التابعين. فحين اختلف الناس بعدهم في تسمية العصر الذي يلي عصر التابعين، وتباينت مراتبهم فيه، إذاك أطلقت كل فرقة على خواص أهلها: العباد والزهاد[41] . "ولما ادعى كل فريق أن فيهم زهادا وعبادا، انفرد خواص أهل السنة، المراعون أنفاسهم مع الله، الحافظون قلوبهم عن الغفلة باسم التصوف"[42] . فاللقب إذن، وصف

(36) الاعتصام: 1/ 359

(37) تسمى بالرسالة القشيرية في علم التصوف

(38) الاعتصام: 1/ 15

(39) الاعتصام: 1/ 150 وانظر: الرسالة القشيرية: 36

(40) لابن تيمية كلام على رسالة القشيري الخاصة باعتقاد مشايخ الصوفية، حيث رد عليها واعتبرها أقل مما ألفه الكلاباذي والسلمي". انظر "كتاب الاستقامة: 42-91

(41) نقل القشيري تعريفات مختلفة عن الزهد، إلا أنها وإن اختلفت صياغة، فقد تقاربت دلالة. فهي تعريفات تصب في ترك الدنيا، وعدم المبالاة بمن أخذها أو حيزت له، ثقة بالله مع حب الفقر فيها من قبل الزاهد-كما يقول عبد الله بن المبارك -. يقول أبو علي الدقاق: "الزهد: أن تترك الدنيا كما هي، لا تقول أبني بها رباطا أو أعمّر مسجدا" الرسالة القشيرية: 229. وقال أبو عثمان: " الزهد: أن تترك الدنيا ولا تبالي بمن أخذها"229.وقال ابن خفيف: " الزهد سلو القلب عن الأسباب ونفض الأيدي من الأملاك. وقيل: الزهد: عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف"229. وقال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: "سمعت النصرباذي يقول: الزاهد غريب في الدنيا، والعرف غريب في الآخرة ". وقال الجنيد: " الزهد: خلو القلب عما خلت منه اليد "230. وسئل الشبلي عن الزهد، فقال: "أن تزهد فيما سوى الله "230. وقال عبد الواحد بن زيد: " الزهد: ترك الدنيا والدرهم "230. فأنت ترى أن التعريفات التي سقناها، نقلا عن القشيري في الرسالة، تتفق كلها على أن الزهد إنما هو ترك الدنيا، والقرب من الله بالعبادات، والثقة به، من حيث إن الرغبة عند الزاهد تنصرف عن مباح إلى ما هو خير منه –كما نقل الشاطبي عن الغزالي –الموافقات: 1/ 86

(42) الاعتصام :1/ 150

تمييزي لهم عن غيرهم، إلا أنه لا يدل على أن لهم خواصا تميزوا بها على غيرهم من عموم أهل الإسلام، ترفعهم فوق عامة المسلمين، أو تضفي عليهم التعظيم والتقديس والعصمة دون سواهم.

فما تميز به متقدمو الصوفية، على حد تعبير الشاطبي نجمله في الأمور التالية التي لا تخرم أصلا شرعيا ولا تعارضه:

أنهم تخلوا عن حظوظهم لحظوظ معبودهم، تقربا إليه، وطمعا في مرضاته،

الالتزام بأداء الحقوق على التحقيق، سواء أتعلقت بحقوق الله أم بحقوق العباد.

لم يدعوا أبدا أنهم أصحاب مكاشفات، ولا كرامات، وإنما كانوا يتهيبون من الكرامات، ولا يلقون لها بالا عند حصولها في طريق المجاهدة.

لم تجر أعمالهم على غير ما دل عليه أصلا النظر عندهم، فلم يبتدعوا، ولم يؤسسوا الحكم التكليفي على منامة، أو على رؤيا، أو على مكاشفة، أو مشاهدة، أو ذوق، بل ظلوا أكبر المستمسكين بالكتاب والسنة، وأحرص الناس على تعظيمهما، وعلى نفي البدع كلها. فهم –يقول الشاطبي-"مجمعون على تعظيم الشريعة مقيمون على متابعة السنة، غير مخلين بشيء من آدابها، أبعد الناس عن البدع وأهلها. ولذلك لا نجد منهم من ينسب إلى فرقة من الفرق الضالة، ولا من يميل إلى خلاف السنة، وأكثر من ذكر منهم علماء وفقهاء ومحدثون، ومن يؤخذ عنه الدين أصولا وفروعا"[(43)] .

لقد كان أوائل المتصوفة، فقهاء، وعلماء ومحدثين، كما كانوا أرباب أحوال، إلا أنهم في أحوالهم عملوا على إسقاط حظوظهم، وبالغوا غاية الجهد في أداء حقوقهم. وكان مذهبهم العمل بالكتاب والسنة، ولم يتواكلوا، ولم يتركوا عملا، ولم يتخذوا رباطات وزوايا لخصوص العبادة، وإنما خالطوا الناس[(44)] وصاحبوهم، واحترفوا الصنائع والمهن،[(45)] وجاهدوا، إلا أنهم آثروا حق الله، فعملوا

(43) الاعتصام: 1/ 171

(44) نقل القشيري عن الصوفي، معروف بن فيروز الكرخي، أن بعض أصحاب داود الطائي قال له: إياك أن تترك العمل... فقلت: وما ذلك العمل؟ فقال: دوام طاعة ربك، وخدمة المسلمين، والنصيحة لهم" الرسالة القشيرية: 45. ونقل السلمي في" طبقات الصوفية عن الفضيل بن عياض قوله: "لم يدرك عندنا من أدرك بكثرة صيام ولا صلاة، وإنما أدرك بسخاء الأنفس، وسلامة الصدر، والنصح للأمة"10. ونقل مثله منسوبا إلى أبو علي الجوزجاني: 247

(45) ذكر القشيري، أن الجنيد كان له حانوت يبيع فيه ويشتري: 8. أما إبراهيم بن أدهم، فكان يأكل من عمل يده مثل الحصاد، وحفظ البساتين، وغير ذلك: 37

لأجله، وهو طريق من طرق التقرب إلى الله، له أصوله الثابتة، في عمل الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة من بعده والتابعين لهم، من حيث إنه طريق لا يناقض اجتهاد رسول الله في كثرة العبادة، واجتهاد عدد من الصحابة في جعل ما يملكونه صدقة لغيرهم، رغم حاجتهم إليه، وكذا تفرغهم للعبادة ورعا وزهدا وتعبدا وتقوى، وهو مما شاع وذاع بينهم، حيث يمثل مظهرا من مظاهر انصراف القلب عن الدنيا، والإقبال على الله . لقد قدم الشاطبي لأوائل الصوفية بهذه الأوصاف، من أجل غايتين عظيمتين:

-الأولى: أن أوائل المتصوفة، براء مما نسب إليهم من مخالفة السنة، واتباع البدع، واختراع العبادات الخاصة من قبل المنكرين للتصوف، ومن قبل المترسمين من محترفي التصوف المتذرعين به. فالتصوف لا يستقيم إلا "بالالتزام والتمسك بكتاب الله –كما يقول التستري–والاقتداء بسنة رسول الله، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق"[(46)] .

-الثانية: لتكون طريقتهم حجة على أهل البدع، وعلى كل من ينتسب إلى طريقة الصوفية عموما، من المتأخرين أو اللاحقين عليهم، أو المدعين في طريقه خصوصا، ممن لم يجروا على"غير مناهجهم، بل أتوا ببدع محدثات، وأهواء متبعات"[(47)] ،" فهم الحجة لنا على كل من ينتسب إلى طريقتهم، ولا يجري على مناهجهم، بل يأتي ببدع محدثات، وأهواء متبعات، وينسبها إليهم تأويلا عليهم، من قول محتمل، أو فعل من قضايا الأحوال، أو استمساكا بمصلحة شهد الشرع بإلغائها أو ما أشبه ذلك"[(48)] . فما منهجهم في استمداد الأحكام الشرعية من مظانها؟

المنهج في استمداد الأحكام من الأصول المعتبرة

من ينظر في الخطاب الصوفي عند بداية تشكل معالمه، سوف يقف على خطاب تشكلت أسسه، ومفاهيمه، ومناهجه ومقاصده، ومدارسه على أسس من الشرع سليمة، لا تقل أهمية عن الأسس التي تشكل بها الخطاب الفقهي[(49)] . ومع أن الخطاب الصوفي، مستمد من النظر في الكتاب والسنة، فإن

---

(46) الاعتصام: 1/ 161

(47) الاعتصام: 1/ 172

(48) الاعتصام: 1/ 172

(49) "اسم التصوف مشعر بمعناه كالفقه لأحكام الإسلام والأعمال الظاهرة والأصول لأحكام الإيمان وتحقيق المعتقد "قواعد زروق : القاعدة 6- حيث يفهم منها أن التصوف نشأ إسلاميا في أصله، كما نشأ الفقه والتوحيد، وهذا الثلاثي من العلوم الأولى يتكامل في تحقيق التدين والوعي به، ومراعاة مختلف جوانب الشخصية الإسلامية المتدينة،

الاستمداد منهما، قام على نفس المناهج الأصولية التي حكمت العمل الفقهي، إلا أن الخطاب الفقهي، ركز في موضوع النظر، على ضبط الظاهر من خلال مختلف الأحكام التي تجري على الخلق في أخذ حظوظهم بالعدل، بينما الخطاب الصوفي ركز على إصلاح الباطن، وتقويم السلوك بالتزكية، وتربية النفس على ترك الحظوظ جملة. ولكن كيف ذلك؟

إن الفهم عن الله ورسوله مرادهما(50) ، هو الغاية من النظر في القرآن والسنة. وفهم المراد، لن يتأتى إلا باتباع قواعد لغوية تفسيرية، بها يفسر الخطاب الشرعي، وبها يصان من الانزلاق نحو التأويل الفاسد والتأويل المنحرف. وبما أن حساسية التأويل، ألصقت تاريخيا بالخطاب الصوفي، فقد حرص المتصوفة الأوائل، على أَلاّ يباين فهمهم معهود العرب في لسانهم، لأن القرآن والسنة، عربيان، ولا يفهمهما حق الفهم إلا من علم بلسان العرب، ومعهودها في الاستعمال.

فالعلم بلسان العرب، إنما ينضبط بالتمكن من القواعد التفسيرية التي تضبط الفهم ومقصود الكلام، وهذا يقتضي العلم بالخاص والعام، والمطلق والمقيد، والحقيقة والمجاز، ومفهوم الخطاب، وفحواه، ودلالته...لأن تلك المعرفة ضبط في عدم الانحراف بفهم خاص، ينزلق عن الفهم العام الذي أسس قواعده العلماء المحققون بفعل التحقيق والتدقيق والسبر والاختبار(51) .

إذن، يتفق أوائل الصوفية مع الفقهاء في ضابط الاحتكام في الفهم–رغم اختلاف الموضوع، لأنهم متفقون على شرط اللغة فيه، إذ الاعتبار عندهم جميعا هو معهود اللسان العربي، لكي لا يحمل

لأنه راعى فيها الأعمال الظاهرة والباطنة، وراعى فيها ما يزكيها في شتى صور التدين، إذ أخلاق المتصوفة تسموا بهم نحو أعلى الكمالات، ولا تترك الفعل جافا مجردا من البعد الأخلاقي.

(50) انظر، الموافقات: 4/ 232

(51) قد يتفرد الصوفية بقاموس خاص عن غيرهم، إلا أن هذا التفرد في "بيانهم الصوفي" الذي هو الرسالة القشيرية لا يعبر عن خروج مناهض للمعاني المتداولة للألفاظ. ويبرر القشيري اتخاذ المتصوفة ألفاظا خاصة بهم، يستعملونها انفرادا بها عمن سواهم، "لأغراض لهم فيها من تقريب الفهم على المخاطبين بها، أو تسهيل على أهل تلك الصنعة، في الوقوف على معانيهم بإطلاقها، وهذه الطائفة مستعملون ألفاظا فيما بينهم قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم، والإجمال والستر على من باينهم في طريقتهم لتكون معاني ألفاظهم، مستبهمة على الأجانب، غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها "الرسالة القشيرية: 149. ومع ذلك، فمختلف الألفاظ التي أورد القشيري مدلولها عند أوائل الصوفية، شكلت فيما بعد القاموس الذي سوف يقوم عليه التفسير الإشاري، بل سوف تأخذ منحى آخر من الإبهام والإجمال المغرق في الرمزية والغموض مع ابن عربي والحلاج خصوصا ، ومع متأخري الصوفية عموما. إذ سوف لن يعود لها ذلك المعنى الذي كان يفهم منها في بداية تشكل المذهب الصوفي.

اللفظ على محمل التأويل الذي لا ينضبط له الفهم العام، ولا يتقيد به ذوو الأفهام المغرقة في التأويل، كما حصل في تفسير متأخريهم.

لقد حافظ متقدمو الصوفية على دلالة اللفظ، فلم يحصل من أغلبهم إذاك، تجاوز لغوي[52] ، كما سيحصل مع أصحاب النظريات العرفانية التي سعت إلى الكشف والفيض الإلهي. ورغم أن "اللغة الصوفية، لغة إشارة لا لغة عبارة"[53] ، فقد كانت في البدء، مقبولة محددة الدلالة، إلا أنها بعد ذلك، حملت إشارات[54] على حسب التجربة الصوفية. لكن حين لم تنضبط تلك الإشارات لمعنى متحد، أوقع العبارات في متاهات التأويل، فأصبح للعبارة ظاهر وباطن، غير الظاهر والباطن المقصود في عبارة المتقدمين عند الإمام الشاطبي[55] . فالصوفية الأوائل، انضبطوا في فهم المدلول، لما جرى عليه اللسان العربي[56] ، فاستقامت لهم المعنى، حيث تطابق فهم الباطن مع مقتضى الظاهر، فلم يتناقضا، لأن الحمل على الباطن إنما يقبل بشرطين:

- الشرط الأول: أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر في لسان العرب، ويجري على مقتضى المقاصد العربية"[57] ، "فكل معنى مستنبط غير جار على اللسان العربي فليس من علوم القرآن في شيء، لا مما يستفاد منه، ولا مما يستفاد به"[58]

-الشرط الثاني: أن يكون له شاهد نصا أو ظاهرا، في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض"[59].

---

(52) قال السراج الطوسي في كتابه اللمع:" المستنبطات ما استنبط أهل الفهم من المتحققين بالموافقة لكتاب الله عز وجل ظاهرا وباطنا، والمتابعة لرسول الله ظاهرا وباطنا، والعمل بها بظواهرهم وبواطنهم".147

(53) عبد المجيد الصغير: التصوف كوعي وممارسة، 59

(54) لا بد من التمييز بين التفسير الإشاري الذي يقوم على الذوق الموافق للشرع، والتفسير الباطني الذي ألغى الظواهر وأناط الفهم بغيرها؛ ذلك، أن الأول لم يخالف مضمون الشريعة بل قال لا بد من حضوره ليبنى عليه ذوقهم الزائد على الفهم الظاهري لها. بينما الثاني يرى، "أن الظاهر غير مراد أصلا، وإنما المراد هو الباطن. وقصدهم نفي الشريعة من أصلها" فكر الشاطبي بين الإبداع والاتباع: مجدي عاشور، 486. فهولاء يعملون على إيجاد المشروعية لرأي منحرف ثابت سلفا لديهم.

(55) انظر الموافقات: 3/ 292

(56) انظر الموافقات: 3/ 293

(57) الموافقات :3/ 295

(58) الموافقات:3/ 293

(59) الموافقات: 3/ 295

وفق الشرطين انضبط أوائل الصوفية إذن، لمقتضى ما دل عليه اللسان العربي، على خلاف أفهام الباطنية[60] التي سوف تؤثر على التصوف فيما بعد، وتفتح المجال للتعدد الدلالي غير المنضبط؛ فالعام لم يعد عاما، والباطن لم يعد باطنا، بل تراجع الفهم الظاهر، وحلت محله إشارات لا قبل للسان العربي بها. غير أن الإمام الشاطبي في حمل الفهم على بعض الاعتبارات الواردة على القلوب، الظاهرة للبصائر، لم يستبعد حصول هذا الفهم بالنسبة "لأهل التحقيق بالسلوك، إذ فهم القرآن إنما يرد على القلوب[61]، على وفق ما نزل له القرآن، وهو الهداية التامة على ما يليق بكل واحد من المكلفين، وبحسب التكاليف وأحوالها"[62] .

ولهذا، استخلص أن أفهام أرباب الأحوال المتقدمين، لم تجر إلا على وفق المراد الشرعي، رغم ما حملت عليه الألفاظ من قبلهم، إلا أن ذلك الفهم أبقاها على الدلالة المعتبرة، وإن اصطبغت بالروح السلوكية، واحتشدت في قاموس متقارب الدلالة، هو القاموس الصوفي.

هذا الدفاع المستميت عن أوائل الصوفية، يعكس بصورة جلية مدى تطابق الخطاب الصوفي بالخطاب الفقهي عند أبي إسحاق، سواء على مستوى الاستمداد، أو كيفية الاستمداد، أو ثمرة النظر في النص المستمد منه، إذ أغلب التنزيلات لم تباين واقع التدين العام، ومن ثم، فإسباغ المشروعية على

---

(60) صنف من المفسرين للخطاب الشرعي باينوا الفهم الظاهري والإشاري، وتعلقوا بالفهم الباطني، وحملوا المراد عليه، حيث تميزوا بأفهام لا تنضبط للغة المعهودة، ولا للإشارة المقبولة، بل هي أفهام عملت على إخراج مدلول النص من ضوابطه المعهودة، وصرفه إلى أفهام وتأويلات لا ضابط فيها، فهولاء بالنسبة لأبي إسحاق، قد خرجوا بأفهامهم عن مقتضى التأويل المقبول إلى التأويل المرفوض عند جمهور العلماء، لأنهم ليسوا وسطا بين التفسير الإشاري المعبر عن حالة من الذوق المنضبط لمقتضيات الشرع، والتفسير الظاهري المبني على ضوابط اللغة، وإنما هم طرف آخر جعلوا التأويل بابا مفتوحا لا حدود له ولا ضوابط، بل لك أن تفسر بما أَعَنّ لك، وما يخدم الفلسفة المؤطرة لفهمك، ولن يجرأ على هذا إلا لمن تشبع بغنوصية، وأفلاطونية محدثة، حيث ينطلق صاحبها من فكرة قبلية مسلمة لديه، يوظف لها النص القرآني فقط لتأصيلها. فالخطورة إذن، أن التفسير الباطني غير بريء، لأنه عبارة عن آراء فلسفية سبق أن قال بها البعض، فحاول هو تضمينها الفهم القرآني. أما التفسير الإشاري فهو تفاعل بريء مع النص، حيث يحتفظ بمدلول النص ويعطي أبعادا أخرى. لذلك، يلاحظ عن الشاطبي رفضه التام للتفسير الباطني، بل عده من معاول الهدم للفهم السليم الخاص بالنص الشرعي.

(61) أي: على قلوب أصفيائه –يقول السراج في اللمع– حيث يكشف الله لهم المعاني المذخورة، واللطائف والأسرار المخزونة، وغرائب العلوم وطرائف الحكم، في معاني القرآن، ومعاني أخبار رسول الله من حيث أحوالهم، وأوقاتهم، وصفاء أذكارهم" 147، مع أن ما يستنبط بالإشارة، يكون " بالموافقة لكتاب الله ظاهرا وباطنا، والمتابعة لرسول الله ظاهرا وباطنا": 147

(62) الموافقات: 3/ 303

التصوف بهذا التطابق حقيقة قائمة لا ترتفع، بسبب حملات التشويه أو الرفض أو المغالاة في تصوف الأولين.

والحاصل، أن أوائل الصوفية إنما سلكوا طريقا في تنزيل الخطاب الشرعي لا يناقض مقتضيات الشرع، فهو طريق تنزيل، مشهود له بالاعتبار، يسعى إلى التزكية والتهذيب والتربية وتحقيق سمو العبادة مقصدا. ولهذا، يظل طريقهم هو الأليق بالاقتداء في تحقيق التزكية والسمو بالأخلاق الإسلامية، والإسهام في إنقاذ البشرية من ويلات النزعات المادية المغالية. فما هي أوصاف المترسمين أدعياء التصوف؟

الضرب الثاني : المترسمون، أدعياء التصوف

يجمل الإمام الشاطبي خصائص أدعياء التصوف في نصه التعريفي بقوله في شأن هولاء المترسمين إنهم: "قوم تأخرت بهم أزمانهم عن عهد السلف الصالح، ادعوا الدخول في التصوف من غير سلوك شرعي، ولا فهم لمقاصد أهله، وتقولوا عليهم ما لم يقولوا به"[63] .

في هذا التعريف التقريبي لطائفة المترسمين، حدد الإمام الشاطبي أوصافا أربعة عنهم، وهي جملة خصائصهم التي بها اختلفوا وتميزوا عن غيرهم في الاعتقاد والسلوك:

-الوصف الأول: أنهم قوم تأخرت بهم أزمانهم عن عهد السلف الصالح، أي: إن زمانهم جاء بعد زمن السلف الصالح. وقد نتفق على أن بدايته، هي بداية الرسالة. أما نهايته، فإنه يستحيل على المرء وضع نهاية له، إلا أن تصرف النهاية إلى زمن مرحلي يقصد به الزمن الذي قلت فيه البدع، وحصر الناس تدينهم فيما بني على أدلة من الشرع واضحة، ليعتبر تحديد متوافق عليه بين أهل الاختصاص. وعليه، فالعبرة في تصور أبي إسحاق للزمن، ليست وقتية، وإنما بحسب ما حصل من الإخلال بالخروج عن التمسك بمقررات الشرع منهجا ومقصدا واستمدادا وفهما، قياسا على غلبة سلامة التدين في الزمن الأول، قبل أن تنبغ نوابغ الخروج عن السنة ، والإصغاء إلى البدع المضلة[64] .

فهم من متأخري الصوفية، أي: لا يحسبون في صف المتقدمين من الصوفية، لما أحدثوه من البدع التي أخرجوا بها السلوك الصوفي عن غاياته ومقاصده، وأولاها التقرب إلى الله بما تعبدنا به -كما ثبت

(63) الاعتصام: 1/ 151 مع تعديل بسيط في بعض التراكيب فقط.

(64) انظر، الاعتصام: 1/ 15

عن صوفية الزمن الأول عموما-، لا بما يخترع مما اتفق على رفضه وعدم قبوله من البدع الإضافية أو الحقيقية.

-الوصف الثاني: أنهم قوم ادعوا الدخول في التصوف من غير سلوك شرعي، أي: لم يصر ذلك الوصف لهم وصفا حقيقيا، كما كان عند الأوائل من الصوفية، بل اصطنعوا السلوك وتظاهروا به، واعتبروا أنفسهم منه، مع أن الوصف خاص بقوم "عملوا في أحوالهم على إسقاط حظوظهم، وبالغوا غاية الجهد على أداء الحقوق، إما لسائق الخوف أو لحادي الرجاء"[65] ، حتى جرى عملهم على وفق اعتقادهم، فلم يتقربوا إلى الله بالواسطة، ولم يخالفوا الشرع بإحداث البدع، ولم يتساهلوا في تعظيم السنة، وتطبيق أحكامها على تصرفاتهم، بل ظل مقصدهم الالتزام في التقرب بما التزم به سلفهم من الصحابة والتابعين. أما هؤلاء، فإنهم "يتساهلون في اتباع السنة، ويرون اختراع العبادات طريقا للتعبد الصحيح"[66] ، لكي يتميزوا ويظهروا بين الناس تبعا لأهوائهم، لأن المترسمين حين لم يصر لهم سلوك الصوفي وصفائه سجية، زادوا تلك العبادات تمويها وتلبيسا على الغير[67] .

-الوصف الثالث: أنهم قوم ما فهموا مقصد أهل التصوف المتقدمين، فمقصد المتقدمين منهم، كما يحكيه شيوخهم، وكما تدل عليه طريقتهم هو: تحقيق التقرب إلى الله بالعبادات والإخلاص فيها، وترك الحظوظ الخاصة لحظ الشارع، لأن القصد الأسمى من الخلق هو العبودية، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦﴾[68]. ومن كان هذا قصده، تحرى أن يوافق فعله قوله، وتحرى ألا يخلط عبادته ببدع ومحدثات، وراع الصدق والإخلاص مع الله في الأمر والنهي. أمّا هولاء، فقد أحدثوا، وتظاهروا، وما أخلصوا، لأنهم لو أخلصوا، لتحروا بعملهم قصد الشارع المتحد.

- الوصف الرابع: أنهم تقولوا على المتقدمين من المتصوفة ما لم يقولوا به، إما حكيا عنهم، أو تأويلا لكلامهم. حيث نسبوا إليهم من البدع، ما لم يثب قط عنهم، كما نسبوا إليهم أقولا، تأويلا عليهم، إما من" قول محتمل، أو فعل من قضايا الأحوال، أو استمساكا بمصلحة شهد الشرع بإلغائها، أو ما أشبه ذلك"[69] . كثير ما ترى هولاء المترسمين، ممن يشتبه بهم، يرتكب من الأعمال ما أجمع على فساده شرعا. وإذا بين له أن سلوكه يناقض الشرع، استدل واحتج بحكايات عنهم، هي قضايا أحوال، ويترك

---

(65) الموافقات: 4/ 209، بتصرف بسيط

(66) الاعتصام: 1/ 151

(67) انظر، الاعتصام: 1/ 51

(68) الذاريات: 56

(69) انظر، الاعتصام: 1/ 172

من كلامهم وأحوالهم ما هو أوضح منها في الحق الصريح والاتباع الصحيح[70] . فما هي مآخذهم في الاستمداد؟

أما فيما يخص أصول الاستمداد، وهي التي غيرت من ملامح التصوف السليم، وأضافت له أصولا أخرى لم تكن معتبرة عند الصوفية، فقد ميز فيها الشاطبي بين خمسة أنواع من الاستمداد، كلها طارئة على الأصول السابقة، وهي:

أولا: ما استمد من الأحكام بسبب تحريف الأدلة عن مواضعها.

ثانيا: ما استند عليه من الأحاديث الواهية الضعيفة والمكذوب فيها على رسول الله ﷺ[71] .

ثالثا: ما استمد من الأحكام بالقياس على غير أصل شرعي صحيح.

رابعا: ما استمد من الأحكام بالاستحسان العقلي.

خامسا: ما استمد من الأحكام بالكرامات بما فيها : الكشف والمعاينة وخرق العادة والذوق والحدس[72] .

معلوم، أن الكرامات، ظلت أصل منشأ أكثر أحكام أدعياء التصوف، كما ظلت أكثر الأصول اعتمادا في الاستمداد، مقارنة مع نسبة الأحكام المستمدة من كل أصل منفردا. لهذا قرر فقيه غرناطة: "أنهم (أي: المترسمون)يعتمدون في كثير من الأحكام على الكشف والمعاينة(المشاهدة)، وخرق العادة، فيحكمون بالحل والحرمة، ويبنون على ذلك الإقدام والإحجام"[73] .

فالكرامات التي نسف بنيانها المعرفي أبو إسحاق في متنه، هي التي أصل لها أدعياء التصوف، واستدلوا عليها بما يثبّت أقدامها في الاعتقاد، ويمكنها من أن تصير بنفسها أصلا يستمدون منه الأحكام. لقد بين أبو إسحاق الشاطبي بيانا شافيا، أن الكرامات قد أثبت لها أصحابها المشروعية توهما، من أصول ثلاثة:

---

(70) انظر، الاعتصام: 1/ 172

(71) انظر الاعتصام: 2/ 12

(72) الموافقات: 2/ 200

(73) الاعتصام: 1/ 360

الأول: أن الرسول صلى الله عليه وسلم، اعتمد على المنامات في الحكم على التصرفات، ولهذا، فأمته يجري عليها ما يجري عليه من الحكم بالمنامات والخوارق، إذا ظهرت على يد أحد من أمته[74] .

الثاني: أن بعض الخواص من الأمة، قد اختصوا ببعض الأمور التي لم تظهر على يد الرسول صلى الله عليه وسلم، "كفرار الشيطان من ظل عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، وأن ملائكة الرحمان تستحيي من عثمان بن عفان، وجاء في أسيد بن حضير وعباد بن بشر، "أنهما خرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة مظلمة، فإذا نور بين أيديهما، حتى تفرقا فافترق النور معهما"[75] .

الثالث: ما يحكى عن أرباب الأحوال ، من الكرامات والخوارق مما لا يحصى[76] .

وقد وقف منها موقا حذرا، حيث أبرز أنه لا اعتبار للخوارق والكرامات، ما لم يكن لها أصل في كرامات الرسول ﷺ ومعجزاته، وحتى لو تأصلت على هذا، فليست إلا قضايا أعيان، تناط بأصحابها، ولا يتعدى بها إلى غير ذلك، ليستمد منها الحكم في كل الأزمنة والأمكنة. كما أنه لو تقرر صحتها، فإنها لا تعتبر ولا تراعى، "إلا بشرط أن لا تخرم حكما شرعيا، ولا قاعدة دينية، فإن ما يخرم قاعدة شرعية أو حكما شرعيا ليس بحق في نفسه، بل هو إما خيال أو وهم، وإما من إلقاء الشيطان"[77] .

وهذا يعني، أنه لا اعتبار للمنامات والمشاهدات، في التصرفات التي تبنى أحكامها على سبب ظاهر، "فإن الظواهر قد تعين فيها بحكم الشريعة أمر آخر، فلا يتركها اعتمادا على المكاشفات أو الفراسة، كما لا يعتمد فيها على الرؤيا النومية، ولو جاز ذلك، لجاز نقض الحكم بها"[78] . فلم يبق إذن، في الرؤيا النومية وغيرها من الكرامات، إلا أن يكون محلها هو البشارة والنذارة التي يترتب عنها الإقدام والإحجام، وليس أن تكون أصلا يلغي السبب الظاهر، أو يرجحه أو يعارضه، بل لا مكان لها في

---

(74) انظر، الموافقات:2/ 193

(75) الموافقات: 2/ 197-198

(76) انظر، الاعتصام: 1/ 360 والموافقات: 1/ 267، فقد نقل في رسالة القشيري، عن أبي خير البصري بأنه كان بفناء داره رجل أسود فقير يأوي إلى الخرابات، قال فحملت معي شيئا وطلبته، فلما وقعت عينه علي تبسم وأشار بيده إلى الأرض فرأيت الأرض كلها ذهبا تلمع. ثم قال هات ما معك، فناولته وهالني أمره وهربت" وأمثلة أخرى عن النوري، وعبد الرحمن بن زيد وأبي زيد البسطامي وغيرهم.

(77) الموافقات :2/ 203

(78) الموافقات :2/ 203

الفصل بين الخصوم، إذ الرسول ﷺ، لم يحكم إلا على وفق ما سمع، لا على وفق ما علم، ولو كان ما علم بالفراسة أو المعاينة أو الرؤيا النومية هو الصواب.

ومقتضى ما يرمي إليه كلام الإمام الشاطبي، أن ما يعاينه الرائي في نومه، وما يكشف له من الغيوب، ليس أصلا في التحريم والتحليل، ولا مصدرا للفصل فيه في النزاع، ولا غير ذلك، وإنما هي أحكام منامية، هدفها، تحفيز آحاد الناس على فعل الخير وترك الشر، وأنه لا يتعدى بها هذا المحل، لأنها حين تتعداه، تصبح مضاهية للنص، في التخصيص والتقييد، والنسخ كذلك. وهذه جسارة واعتداء على مكانته في أصل التشريع، بل أصل ترهيبي يروم التخويف، لئلا يعدل المريد عن الحضرة، وينصرف عن اتباع شيخه، وألا يناقشه أو يعارضه، بل يقبل الخنوع له والخضوع لإملاءاته، حيث يتصرف في إرادته، وفي مصيره كما يشاء، حينها يظل المريد، مسلوب الإرادة، مشلول النظر، عاجزا عن مناقشة شيخه أو رد كلامه.

يتضح مما سبق، أن أبا إسحاق يسعى من خلال هذا النقد لأصل الكرامة، تخليص أصول الاستمداد الصوفي من الأصول الدخيلة، وذلك، نخلا للتصوف، وتنقية له من تلك الترهات المستمدة بالاعتماد على تلك الأصول المنحرفة.

المرتكز الرابع مرتكز منهجي: أن عمل الشاطبي في نقد التجربة الصوفية توفيقي(79) تصحيحي بالأساس، كما كان عمل إمام دار الهجرة الإمام مالك، فلم يذهب الشاطبي مع رأي من أنكر التصوف واعتبره مذهبا دخيلا يمتد أصوله من البوذية أو الأفلاطونية المحدثة أو مختلف الفلسفات الإشراقية، ولا مع رأي المغالين في التصوف الذين رفعوا من شأن الأولياء إلى مقامات أسمى في بعض الأحيان من مقام الأنبياء، وأضفوا عليهم لباس التقديس والعصمة ، ونفي الخطأ عنهم. فالإمام الشاطبي أقر بالتصوف طريقا في التعبد، مثله مثل الطرق الأخرى، يقبل منه ما لم ينصرف عن أصول الشريعة، أو يحرف الممارسة الصوفية عن مقصد التهذيب والتأديب والتخليق وتحقيق القرب من الله تعالى، ويرد منه ما خالف تلك المقاصد.

(79) اشتد الصراع في بداية العصر المريني على المشروعية بين الفقهاء والمتصوفة، ومثل ذلك الصراع مناسبة للخوض المجتعي في مناقشة الخطاب الصوفي، ومع عمق التجربة الصوفية وتجدرها في الممارسة الدينية، وأثر أقطابها على المجتمع العام، ودورهم الريادي في الإطعام والإيواء والتوعية والتعليم استطاعوا في زمن الشاطبي أن يؤمنوا مشروعيتهم، ويثبوا أقدامهم في الممارسة الدينية، لهذا رأينا الشاطبي لا يتحدث عن الإنكار، وإنما يبحث عن آليات التوفيق بعد أن خمد الصراع على المشروعية. انظر محاضرة أحمد البوزيدي، التصوف بالمغرب المريني وجدل المشروعية ضمن الكتاب الجماعي " التصوف السني في بلاد المغرب-نسق نموذجي للوسطية والاعتدال.

إن التصوف سد ثغرة تدينية، تتعلق بكيفية تزكية الأنفس وتهذيبها والسمو بها، لتطهير من الأمراض الباطنية، نظرا، لما يكر على مختلف الأنفس من أمراض العجب والكبر والرياء وحب الدنيا وملذاتها، .....وفي نفس الوقت أن تتمكن تلك النفس من تحصيل المعرفة الحقة بالله...، إن التصوف سد ثغرة تتعلق بإصلاح الباطن كما سد الفقهاء ثغرة من جهة أخرى تتعلق بإصلاح الظاهر، وبالتالي فالفقيه والصوفي يتقاطعان في الغاية؛ لأن الطريقين معا يرومان إصلاح ظاهر المكلف وباطنه، وتحقيق السعادة في الدنيا والآخرة. يقول زروق الفاسي:" الفقه والتصوف شقيقان في الدلالة على أحكام الله وحقوقه، فلهما حكم الأصل الواحد في الكمال والنقص، إذ ليس أحدهما بأولى من الآخر في مدلوله"(80).

وإذن، لا بد أن يتعايشا ويتكاملا، ويتوافقا ولا يتخاصما، مهما اختلفا في الموضوع أو الممارسة. فلا أحد يستطيع أن يلغي الآخر مهما بلغ، وإن تحقق له ذلك هنا، فشل هناك.

المرتكز الخامس مرتكز بُعدي غائي: فيه الحديث عن أبعاد أطروحة الشاطبي في خصوص التجربة الصوفية، ومن تلك الأبعاد:

**-البعد العقدي، ويدور حول التأكيد على الهوية التوحيدية للمتصوفة، من حيث إن رجال الصوفية لم يتقربوا إلى الله في الأصل بالوساطات، ولم ينصبوا أنفسهم واسطة بينهم وبين الخلق، بل ظلوا في أذكارهم وأورادهم وخلواتهم وجلواتهم، وظاهرهم وباطنهم، يجتهدون لتصفية القلب "من موافقة البرية وموافقة الأخلاق الطبيعية"(81) . لهذا، ظل الشاطبي في متني الموافقات والاعتصام يشتغل على إبطال المشروعية البدعية المشرعنة للوساطة التوحيدية، وهذا ما دفعه أن يعمد في الاعتصام إلى نقد مختلف أشكال البدع، لأنها المدخل لتكريس الوساطات. من هنا، رفض تقسيم المتقدمين للبدعة، ولم يقبله بالمرة، لأنه " يوقع في اضطراب في فهم الشريعة ، فلا نميز فيها بين الأصل المقطوع به، وبين ما يمكن أن يضاف إليه، ويقحم من بدع، قد تؤخذ باعتبارها حسنة، وتلحق بسبب ذلك بمرتبة الوجوب أو الندب أو الإباحة "(82) .

استحكم إذن، البعد العقدي -القاضي بتنزيه الله، وإفراده بالخلق والعبادة، -أطروحة الشاطبي في تصحيح مسار التجربة الصوفية. فالصوفي في الأصل، لا يختلف اعتقاده عن اعتقاد أهل السنة في

(80) زروق: قواعد التصوف، 29

(81) التعرف لمذهب أهل التصوف: 16

(82) المعرفة والسلطة في التجربة الإسلامية: 545

التوحيد بكل مقتضياته، سواء أتعلق الأمر بالعمل على نزع العصمة على المخلوقين، أم بنزع صفة الانفراد بالتشريع عن طريق الكشف والمعاينة وخرق العادة[83]، أم بغير ذلك مما له تشويش على التنزيه وإفراد الله بالخلق والعبادة والتشريع ابتداء. يقول القشيري: " شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد، صانوا بها عقائدهم من البدع، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل "[84].

**-البعد الأخلاقي التربوي، وفيه يقدم الإطار الإجرائي لمفهوم التصوف، والمغزى الكلي له، حيث يظهر أن الشاطبي لما تولى تعريف التصوف صدره بالقول: " إنه التخلق بكل خلق سني، والتجرد عن كل خلق دني"[85]. مما يدل على أن الأخلاق القرآنية محور الممارسة الصوفية، لما عرف عن الصوفية من ارتفاع منسوب الصدق والأمانة والخشية والصبر والتوكل والمثابرة والمحبة والرحمة والعفو والوفاء والرضا في اعتقادهم وممارستهم، ولولا ذلك لما تميزوا عن غيرهم، حيث تميزوا بأمرين:

- الأمر الأول: الاشتغال على الورع والزهد والتجافي عن الدنيا وملذاتها، والإنابة إلى دار الخلود، "والتطهر بالظواهر من الأنجاس، وبالبواطن من الأهجاس، وما يتحرك في الضمير من الخواطر"[86].

- الأمر الثاني: التحلية بأمهات الأخلاق الفاضلة، تصفية للقلب ومفارقة للأخلاق الطبيعية، والوفاء لله على الحقيقة. فالتصوف –يقول الكتاني-: خلق فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء"[87]، ويقول عنه أبو محمد الجريري "الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني"[88]. فالجمع بين تعريف أبي محمد الجريري وتعريف الكتاني، يظهر أن التصوف أخلاق، يتدثر بها السالك، لأنها لو فقدت في الصوفي ضاع سلوكه، من هنا انصب دفاع الشاطبي على تبرئة الصوفية من الأخلاق الذميمة لأنها لا تليق بمقامهم،

**- البعد النقدي التقويمي، لقد حكم البعد النقدي أطروحة الشاطبي جملة، حيث لم تخل مباحث متنه من نقد الخطاب الإسلامي عموما، والخطاب الصوفي على وجه الخصوص، نظرا لهيمنة

(83) انظر، الاعتصام: 1/ 360

(84) الرسالة القشيرية في علم التصوف: 20

(85) الاعتصام: 3/ 352

(86) التعرف لمذهب أهل التصوف: 14

(87) الرسالة القشيرية: 424

(88) الرسالة القشيرية: 422

البدعة على طرق الاستمداد وكيفيته وثمراته، ورغبته الأكيدة في كشف البدع التي انسلت لهذا الخطاب من أجل التقويم والإصلاح، حتى يصفو الخطاب الصوفي ويقوم بوظيفته التربوية والتخليقية.

الأكيد أن الشاطبي عمل على تمحيص الخطاب الصوفي، ونخل أسسه، وكشف أسباب انحرافه وانزلاق أهله. لقد انتقد الخطاب البدعي الذي مس العقيدة والعبادة، وحول السلوك الصوفي إلى ممارسة شكلية أسهمت في التخلية أكثر، وتراجع منسوب السنة النبوية في الاعتقاد والممارسة. إن نقد البدع هو أول خطوة في الإصلاح، لأنه حين يتراجع منسوبها في الممارسة يَرجحُ منسوب السنة. فإحياء السنة ومعرفتها والعمل بها والانضباط لبيانها معرفة بحقيقة الإسلام، لأن السنة مبينة لكتاب الله[89].

من هذا المقصد، وجه أبو إسحاق النقد لأطروحة المتصوفة، ومستنداتهم، وقام بتمحيص حججهم التبريرية التي التمسوا فيها الجواب للرد على من اتهمهم بمخالفة السنة، -كما بيناه في متن الدراسة-. ومع أن الخطاب الصوفي البدعي هيمن على السلوك الصوفي زمن الشاطبي، حيث عرض لتجليات الخطاب والممارسة وأصناف البدع العقدية التي انتشرت وشاعت في المغرب والأندلس، من التغالي في تعظيم الشيوخ والتبرك بهم، والاستمداد من كشفهم وكرامتهم، ومن القعود عن الكسب، والتواكل وترك العمل، ولزوم الزوايا والربط للعبادة، ومن الخروج عن المال، والتشديد على النفس واحتمال المشاق، ومن مجالس السماع القائمة على توحيد الزي والاتفاق على الاجتماع الشهري أو الفصلي أو السنوي، ومن تجويز التعبد بالعبادات المبتدعة كالتعهّد بورْد بعينه دون سواه، أو صلاة في وقت أو مكان دون سواهما، ومن ترديد الأشعار والبكاء بها، والتواجد عليها في إطار حلقات يدعى أنها حلقات ذكر، وما هي كذلك، إلى ما هنالك من أنماط البدع التي تتعلق بأصل الاستمداد، كالاعتماد على الأحاديث الضعيفة[90] ، أو تتعلق بثمرة الاستمداد، أو بالتنزيل والممارسة(نموذج الفقراء) والتي انسلت إلى الخطاب الصوفي، وأصبحت جزءا منه، وواجهها الشاطبي بالنقد، أملا في تصفية السلوك الصوفي من تراهات الإحداث، والنجاح في "تأصيل الممارسة الصوفية في الكتاب والسنة، والحرص على التوفيق بين عقائد أهل السنة وعقائد المتصوفة، والتبرؤ من الانحرافات التي شابت التصوف، وتقريب الشقة بين الفقهاء والمتصوفة"[91] . لهذا، استحكم البعد النقدي تحليل الشاطبي للخطاب الصوفي، نظرا للحاجة الماسة إلى إصلاحه وتقويم اعوجاجه، بكل حزم علمي ومنهجي.

(89) انظر، الاعتصام: 2/ 235

(90) انظر، كتاب الاعتصام

(91) محمد بن الطيب: فقه التصوف بحث في المقاربة الأصولية الفقهية عند أبي إسحاق الشاطبي: 141

**-البعد التأصيلي، وهذا ديدنه في أطروحته كلها، لأنه لم يكن يهتم بالفروع والجزئيات بقدر ما كان يعمل على التأصيل، كي يحصل على قواعد كلية، يقتدر بها على النظر في القضايا الجزئية، وتحرير القول فيها تحريرا مؤصلا. لهذا كان نظره في المسألة الصوفية يتنزل" ضمن مشاغل التأصيل العقائدي والأخلاقي عنده، لذلك لا حظنا مقاومته العنيفة للممارسات السخيفة لأدعياء التصوف من الغناء والرقص ...ولما كان من أهداف الشريعة المنزلة تأسيس أخلاق إنسانية تستأصل الشرور، وتثبت السعادة في الدنيا والآخرة، كان اتباع الشريعة هو الكفيل بتحقيق السعادة"[92] .

فالتأصيل للممارسة الصوفية يأتي ضمن التأصيل العام لمختلف الممارسات والأطروحات، لأن الشاطبي بسلفيته، لم يكن يقبل أي ممارسة ما لم تكن مستمدة من دليل شرعي معتبر يشهد لها بالمشروعية. لهذا نفهم أن الشاطبي لما رأى أن أوائل المتصوفة قيدوا سلوكهم بالكتاب والسنة وعمل الصحابة، ناف عنهم، وانتصر لهم، وامتدحهم، ودعا إلى الاقتداء بهديهم " فهم صفوة الله في الخليقة"، لأنهم التزموا السنة واجتنبوا البدعة، وعملوا بمقتضى الأصول، فهم المقتدون بالسلف الصالح العاملون بمكارم الأخلاق، الواقفون عند حدود الشريعة.

ولئن تنوعت أوجه المناظرة مع أدعياء التصوف، حول تلك القضايا المبتدعة، فقد ظل الشاطبي يدندن على وتر التأصيل، ويحاكم الأنظار بالبعد التأصيلي مهما علا شأنها، واشتهر الأخذ بها في الممارسة، فالحق أحق أن يتبع إن كان له أصل من الشريعة. لهذا كانت التجربة الصوفية الأولى أَوْلَى بالاتباع لسلامتها من البدع، وبنائها على أصول الكتاب والسنة، وعملها بمقتضاهما.

وعموما، نحسب أن المرتكزات الخمسة التي أوجزنا القول فيها، تعتبر أهم العناصر الماثلة في أطروحة الشاطبي الخاصة بتجديد قراءة الخطاب الصوفي في بنيته الفكرية، وفي الممارسة العملية. وتلك المرتكزات المعتبرة مهدت لأطروحة الشاطبي أن يعاد استثمارها في فهم الخطاب الصوفي، وتفكيك بنيته، لفهم كنه آليات التفكير الديني في الغرب الإسلامي، لأن الحفر في التصوف، مفتاح لاستيعاب التجربة الدينية كاملة في الغرب الإسلامي إلى الآن.

المحور الثالث: دواعي الحاجة إلى أطروحة الشاطبي الصوفية لسلامة السلوك

تجديد الخطاب الصوفي ينبغي أن يمتح ضرورة من متن الشاطبي، في إعادة صياغة تصور إسلامي معاصر لهذا الخطاب نظرا:

---

(92) فقه التصوف: 144

**- للحاجة الحضارية الأكيدة، إذ إن خريطة التدين الإسلامي تحتضن صورا تدينية منتشرة تستمد أصالتها من الخطاب الصوفي، لأنه ضرب تديني تنزيلي لازم الأضرب التنزيلية الأخرى، وأصيب بما أصيب به التدين عموما في العالم الإسلامي بآفات الجمود والتعصب والابتداع، وما إلى ذلك من أصناف التحريف التي انسلت إليه قديما وحديثا. فهل ينبغي أن نبقي السلوك الصوفي على تلك الهيأة المحرفة، وكيف نستثمره في الدعوة إلى الله؟

مما لا شك فيه، أن عالمية رسالة الإسلام، ورحمانية مضمون الرسالة يمثل سببا للانفتاح على المجتمعات الإسلامية، وتقديم صورة حضارية تليق بالإسلام. ومن هذا المنطلق، فإن التعريف بالإسلام ينبغي أن يركز على الأسس الثلاثة لمفهوم الدين : الإسلام، الإيمان، الإحسان، والذي يبقى محورا لتحقيق مضمون من نحن ؟ وما رسالتنا؟ هو الإحسان الذي فرطنا في مضمونه. ذلك، أن مقام الإحسان يمثل عند الممارسة ذروة الأخلاق الإسلامية، وذروة ما يصبو إليه الإسلام في عقائده وتشريعاته، لأن مقام الإحسان يحقق للمرء مقاصد ثلاثة:

الأول: أن المرء يحرز على أركان الدين الثلاثة، الإسلام والإيمان والإحسان التي جعلها الله دينا" بعد أن ذكرها رسول الله ﷺ لجبريل عليه السلام واحدا واحدا[93] .

الثاني: أنها تضمن لمحرزها "القائم بها السعادة الأبدية في الدنيا والآخرة، والضامنة لمحرزها أيضا كمال الدين"[94] .

الثالث: تحقيق محبة الله التي لا تحصل إلا بالالتزام بأمره ونهيه، والرجاء فيه، والرضا بقضائه وقدره، وإيصال الخير لعباده، ومحبتهم بمحبته، والحرص على استقامتهم، وكذا بها تخلص النفس من أكدار الشر والرياء والحسد و العجب والتكبر، ومختلف أمراض القلوب، لأن مقام الإحسان مقام مراقبة ومشاهدة، يربط قلب السالك بالله أشد الارتباط، فلا يقدر على معصيته، ويجتهد برغبته في الوصول إلى سمو المرتبة، تقربا إليه، وخشية منه، ومحبة فيه.

إذ المسلم حين يعرف نفسه للغير بهذا الوعي المقرون بالممارسة التي يعبر عنها مفهوم الإحسان، فلا شك أن أثر تلك الممارسة سيشكل مواقف راقية معتبرة، تعجل بالرغبة في معرفة الإسلام ومبادئه، والدخول فيه، لأن العالم يعيش ضربا من الفراغ الروحي لن يملأ إلا بروحانية الإسلام. فالقوانين الإسلامية تتقاطع مع قوانين تلك الشعوب غير المسلمة في كثير من القوانين الضامنة للحقوق، لكن

(93) عبد الله بن الصديق الغماري: الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام: 35

(94) المرجع نفسه: 35

ميزة الإسلام، أنه ينقل التشريعات إلى مستوى آخر يتفرد به ويتعلق بالتشريعات الأخلاقية، حيث يصبح المسلم مسؤولا عن أخلاقه، وملزما بتمثلها، وعن أشكال التعبد التي تحقق توازنه. ولما بنى الإسلام التشريعات على العدل لتحقيق التوازن بين حاجات الروح وحاجات الجسد، غاب هذا في المذاهب الأخرى، وغيابه جعل الإسلام مطلبا حضاريا مخلصا للبشرية.

ولكي يتحقق الإنقاذ، لزم أن يكون أهله في مستوى الرسالة الحضارية الإسلامية، ومن الطوائف المرشحة لممارسة تخليص ما تبقى قبل فوات الأوان، طائفة المتصوفة "المجمعين على تعظيم الشريعة، المقيمين على متابعة السنة، غير مخلين بشيء من آدابها، أبعد الناس عن البدع وأهلها"[95] الذين خبروا الخطاب الصوفي والتزموا بمقتضياته، وتمسكوا بأصوله، وأجروا أعمالهم وفق شرع الله. فالحاجة إليهم كالحاجة إلى الطعام والشراب، إذ دورهم ضروري:

**- "لتحقيق التوازن والانسجام مع فطرية الوجود، وتلمس الحلول للمشاكل المستعصية التي يجثم تحت كابوسها عدد ممن وقعوا في شراك الحيرة والقلق والهوس النفسي، فأضحوا عاجزين عن إدراك ماهية وجودهم، وغائية حياتهم"[96] ، حيث إن العصر الحاضر يعتبر بكل المقاييس عصر "الشهوات والنزوات وانهيار المنظومة الأخلاقية، مما يتطلب مواجهته بإحياء القيم الروحية، والتدثر بالأخلاق الملكوتية، لتطهير الذات، واقتلاع الحيرة من النفوس، والاستعلاء عن قيود المادة، وتحقيق درجات عليا من الصفاء الروحي والكمال الأخلاقي"[97].

**- مواجهة ما اندس في التصوف من أشكال الانحراف التي شوهت صورته، وأخرجته عن سكته السليمة، حين سعى البعض إلى ذلك، حين لونه بأفكار هو منها براء، كمقولة وحدة الوجود، أو ما اصطبغ على التجربة أثناء الممارسة من الاتجاه به نحو الدروشة والاحتيال والنصب على المريدين.

**-تقديم دروس في التعايش، يسمح بحق الاختلاف، ويسهم في حمل البشرية على التعارف، ويفتح أفق الحوار، ويساعد على إنقاذ النفس البشرية من انزلاقات النظريات اللاإنسانية التي تمجد حب

---

(95) الاعتصام: 1/ 147

(96) التصوف السني في تاريخ المغرب، نسق نموذجي للوسطية والاعتدال، مجموعة من المؤلفين، تقديم إبراهيم القادري بوتشيش، 8

(97) -المرجع نفسه: 8

الذات، وتنكر الغيب كليا، ولا تعير للروح اهتماما[98] . وتلك النظريات أفضت إلى تلك الحالات من القلق والتوجس التي أضحى عليها قطاع كبير من البشرية.

فالتصوف المعني بالإنقاذ الحضاري ليس تصوف أولئك الذي امتطوه وسيلة لتحقيق مآرب دنيوية، كالرياسة أو كسب المال أو الجاه، وامتلاك فاخر الرياش، أو أولئك الذين زادوا ونقصوا وعدلوا وحرفوا، أو أولئك الذين خلطوا التصوف بأضرب من الرياضات الروحية فلفقوا بينهما، حيث حولوه إلى طقوس، أغرقت مريديه في ضروب أخرى من الجهل والدروشة والسلبية والتواكل والضعف والتسليم والخنوع والاستسلام.

فهؤلاء جميعا غير معتبرين في تلبية الحاجة الحضارية لإنقاذ البشرية، لأن التصوف الحقيقي ما وافق في أصله وتنزيله مقتضى الخطاب الشرعي، واعتبر أصوله السنية المعبرة "عن سمو الروح، ووسطيته المتميزة بالاعتدال والفكر المستقيم، بعيدا عن ملذات الماديات والجوائح المذهبية، وصخب الفلسفات الإشراقية وعويل الدراويش"[99] . فهذا الضرب هو المحتاج إليه، لأنه "يجسد حقيقة التدين الصحيح الذي يحرك الإنسان في دائرة العقل المسؤول"[100] ، ويوقظه نحو تحقيق الكمال الأخلاقي، في إطار نمط اعتقادي بسيط وغير معقد، يسهل استيعابه وتطبيقه، بعيدا عن المماحكة والتنظيرات الفضفاضة العائمة، لأنه حين يقدم بتلك البساطة يفضى إلى التهذيب والتخليق، وتخليص الذات من الأنانية والنرجسية المفرطة .

وليس التصوف محصورا في فئة بعينها، بل المتصوفة منهم الفقهاء والمحدثون، وممن يؤخذ عنهم الدين أصولا وفروعا، ومنهم لغويون وأدباء وعلماء في شتى أصناف المعرفة، ومنهم فلاسفة وفزيائيون وأطباء ومهندسون وساسة، إلا أن لهم ميزة الفقه في الدين وفقه النفس، حيث أجروا أحكام الشرع على وفق الفقهين، تحقيقا للتقرب من الله بلا ابتداع ولا إحداث. ومن كان هذا شأنه، كان من أهل الحقائق والمواجد والأذواق والأحوال والأسرار. قال القشيري: "جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه –صلوات الله عليهم وسلامه– جعل الله قلوبهم معادن

(98) صدر كتاب " شرود ما بعد الدهرانية للمفكر المغربي طه عبد الرحمن، حيث ناقش فيه بعض النظريات الغربية التي شردت شرودا أفضى إلى التحلل الكلي من الأخلاق، والأخذ بفكرة الإنسان الفائق، القائمة على تحقيق الحد الأقصى من المتعة المادية، وإزالة كل ما يعيق تحقيق ذلك بالإبادة إن اقتضى الحال، لأنه يعد عبئا ومعيقا لتحقيق ذلك.

(99) التصوف السني في تاريخ المغرب: 9

(100) المرجع نفسه: 9

أسراره، واختصهم بين الأمة بطوالع أنواره، فهم الغياث للخلق، والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق. ومن أوصاف هذه الطائفة، الرأفة والرحمة والعفو والصفح وعدم المؤاخذة"[(101)] .

**-للحاجة المنهجية، ذلك أن الشاطبي اقتحم الخطاب الصوفي بعُدة معرفية ومنهجية قل نظيرها، حيث لم يدفعه الخوض في الخطاب الصوفي التعصب للمتصوفة انتصارا لهم، أو دحضا لأطروحتهم، وإنما دفعه إلى ذلك، كشف حقيقة المذاهب الصوفية ليميز بينها، ويفصل بين أقربها للسنة ، وأبعدها منها. ولكي تميز وتفصل، تحتاج إلى طول نفس في إعادة قراءة الخطاب الصوفي الممتد أفقيا وعموديا، كما تحتاج إلى قواعد منهجية يقوم عليها التحليل والتفسير والنقد والتقويم لهذا الخطاب، نظرا لما لبس به من التلبيس، ولتقاطعه مع مختلف التجارب التدينية، ولكثرة أهله وادعائهم أنهم على حق في أذكارهم، وأورادهم، وفي شطحاتهم، وكرماتهم وكشفهم. فكيف نفصل بين أنماط الخطاب الصوفي وأنماط التجارب المعبرة عن مختلف المدارس الصوفية؟

لعل الشاطبي كان قد أدرك صعوبة هذا المهيع، فألمح إلى وجوب التسلح بشتى المناهج لتحقيق التمييز بين تلك المدارس، حيث اعتمد على المنهج التاريخي والاستقرائي والوصفي التحليلي والمقارن. وقد ساهمت عدته المعرفية، في تذليل صعاب المقارنة بين أصول تلك المذاهب، ولا سيما حين كان يقارن بين تصوف المتقدمين وتصوف أدعياء التصوف من المتأخرين.

انطلق الشاطبي في نخل الخطاب الصوفي من الإقرار بمشروعية التصوف ابتداء، على خلاف من أنكره ولم يعتبره طريقا تدينيا، كبعض الفقهاء والمحدثين، ثم بعد ذلك رفع شعار العدل والإنصاف في الحكم على التصوف. حينئذ شرع في تحليل الخطاب الصوفي، وقد أوصله التحليل إلى اكتشاف ما اندس في التصوف من البدع التي غيرت أنماطه، وحرفته عن غاياته.

ما انسل من البدع والمحدثات في التجربة الصوفية أوقعها في مطبات النقد حينا، وفي التجريح والمحاربة أو حتى الإنكار أحيانا أخرى. وقد استقر الموقف على التمييز بين شكلين من التصوف فكرا وممارسة.

نتـــائج الدراسة

يستنتج إذن، أن الإمام الشاطبي رام من نقده لتنزيلات متأخري الصوفية، ألا يقع الخطاب الشرعي في مستنقع التأويل الفاسد، وألا يتسع نطاق الاستمداد، تفاديا لوقوعه بيد سلط أخرى تحرم

(101) تاج الدين السبكي: معيد النقم ومبيد النعم: 119

وتحلل بناء على الرؤى والمنامات والمكاشفات، أو على الحدس وغيره، لأنه إن وقع ذلك فتح الخطاب على كل الأفهام، وارتفع الانضباط لقواعد الفهم التي صاغها الصحابة الأبرار، والعلماء الأخيار. ولهذا، لا بد أن يقع الإجراء، موافقا لقواعد الشرع وضوابطه.

كما يستنتج كذلك، أنه لم يلغ التجربة الصوفية، ولم يعرض موقفه منها على أنه رافض لها، وإنما عدها طريقا مقبولا، ما لم يعارض مقتضيات الشرع. لذلك، بقي وفيا لمنهجه التوفيقي، وذلك، حين ميز بين طريقة المتقدمين والمتأخرين من المتصوفة، حيث تجاوب مع التصوف الأول، ودافع عنه، وتعاطف معه، ودعا إلى الاقتداء بهدي المتصوفة الكبار، فهم في نظره "صفوة الله من الخليقة"[(102)] ، بالمقابل قاوم مقاومة عنيفة الممارسات السخيفة، لأدعياء التصوف من المتأخرين كالرقص والغناء وسماع الشعر،وشتى البدع والأعمال الباطلة التي يتقربون بها إلى الله بزعمهم.

فالمتصوفة سدوا الفراغ الذي تركه الفقهاء[(103)] وعلماء الكلام. فحين اشتغل الفقهاء على إصلاح الظاهر في ضبط التدين، والمتكلمون اشتغلوا على إصلاح العقائد، بقي إصلاح الباطن للمتصوفة الذين أسدوا خدمة كبيرة له، رغم ما وقع فيه من الانحراف بعد. حيث عمل الشاطبي على تقويمه، ورد اعوجاجه لا نفيه بالمرة، لأن في صلاح الصوفي صلاح سلوك الأمة، مادام يقدم للمجتمع النموذج السليم في السلوك الظاهري والباطني. فالشاطبي عموما، نظّر لإلباس العمل الفقهي لباسا صوفيا، حتى تتوافق النيات مع مقصد الشارع، وينزع عن التنزيلات منحاها التجريدي الموسوم بالجفاء، ويتعرف عن النفس، وما داخلها من الأهواء لإصلاحها، لكي تتقرب إلى الله، وتنفرد به عما سواه. وهذا لن يتأتى، إلا للصوفي الذي خبر النفس، وحقق مناطها، فأناط بها أحكامها مراعيا مآلاتها.

وكان هذا مأمول الإمام الشاطبي من وصل الأخلاق بالفقه[(104)] ، لأنه أعاد في تنظيره لمفهوم الفقه، معناه الشامل الذي يحيط بكل أبعاد الشخصية المسلمة، حيث جمع في المفهوم تصحيح السلوك في الظاهر والباطن، لكي لا تكون قطيعة بين الحكم الشرعي وثمرته الأخلاقية.

---

(102) الموافقات: 4/ 239

(103) ذكر الشاطبي أن الفقهاء قد عنوا "بتحرير الحدود والأحكام الجزئية التي هي مظان التنازع والمشاحة، والأخذ بالحظوظ الخاصة...فهذا النمط هو ما كان مجال اجتهاد الفقهاء، وإياه تحروا، وأما ما سوى ذلك مما هو من أصول مكارم الأخلاق فعلا وتركا، فلم يفصلوا فيه" الموافقات: 4/ 172

(104) يراجع في هذا الصدد: محمد المنتار: الأمر والنهي بين القصد الأصلي والقصد التبعي عند الإمام الشاطبي: 292-311

ورغم أن القصد من التجربة الصوفية أخلاقي بالأساس، فإن ما يفتقر إليه العالم الإسلامي عموما، هو أن يعاد تفعيل التجربة الأولى لما لها من أثر على السلوك الشعبي، من حيث إن الصوفي حين يمارس الدعوة بالعلم والاستقامة، ينشر أخلاق الإسلام في العلاقات الاجتماعية، ومن ثم يصبح عونا على الرفع من منسوب الأخلاق في المجتمع الذي تآكل كثيرا، بشرط ألا ينصب وسيطا أخلاقيا . فالحاجة إلى التجربة الصوفية السليمة أكيدة، لأنها:

أ- عود لتطهير النفس وتزكيتها، بدروس الوعظ والإرشاد، وبالذكر والدعاء وقراءة القرآن، وبكل القربات حتى تقوى على غلبة هوى النفس، وخصوصا في زماننا الذي استحكمت فيه الماديات مختلف سلوكياتنا، وأطبق تأثيرها كل حدب وصوب.

ب- عود لممارسة الأخلاق الإسلامية في الحياة العامة، بصورة سليمة، بعد أن نزل مقياس التخلق الإسلامي مستويات خطيرة، يعبر عنها ما يسود في العلاقات الاجتماعية من قيم تناقض أخلاق الإسلام، وتناقض التدين العام.

ت- تحُد من تقديس من لا يستحق التقديس من الرجال والشيوخ، والأولياء، وكل الوساطات، وتعظيم من لا يستحق التعظيم منهم، فالكل أمام أحكام الله سواء، والعصمة صفة مخصوصة، لا تناط إلا بالنص الشرعي، وبإجماع الأمة، أما الأشخاص، فيجري عليهم ما يجري على عامة المكلفين من الوقوع في الخطإ، وحصول الزلل، والاتصاف بالنقصان الدائم.

ج-عودة مهمة إلى فعل النقد البناء، لتقويم الاعوجاج، متى وقع، وكيف وقع، وأين وقع، لأن الأساس من عرض تصور الشاطبي هو الاستفادة من منهجيته في معالجة قضايا التصوف، لتفادي أخطاء التجربة الصوفية السابقة وما رافقها من صور تدينية أفرغت التصوف من مضمونه الأخلاقي والإصلاحي، كما أفرغت فعل التصوف من نشدان التزكية عبر مدارج تقود السالك من مقام إلى مقام أعلى منه.